مكافحة الفساد فى مصر القديمة

كان إنسان الغابة يعيش فوق الأشجار نهارًا، وفى الكهوف ليلاً، يسطو، ويقتل، ويسرق، ويغتصب، كان فاسدًا، منذ عصر لوسى، وكردى من ملايين السنين، حتى عصر الكروماجنون (٤٠ ألف سنة مضت)! حتى لاحظ أن الميت يأتى له فى المنام، اعتقد هذا الإنسان البدائى أن الهواء أو الريح أو الروح التي تغادر الميت هى التي تزوره عند النوم! خاف كثيرًا، آمن أن هناك حياة بعد هذه الحياة، وأن هناك آلهة طيبة، وآلهة شريرة تؤذيه بالزلازل والحرائق والبراكين، فتقرب إليها بالأضاحى البشرية ثم الحيوانية حتى تكف غضبها عليه. الملاحظ أن كلمة TIRSPS أى روح من NOITARIPSER أى تنفس، وربما عبر هذا المعنى أبو الطيب المتنبى فى قولة: فما هذه الأرواح إلا من جَوِّهِ وما هذه الأجساد إلا من تربه!

د. وسيم السيسى

أستاذ جراحة الكلى والمسالك البولية
والباحث فى علم المصريات

خاف الإنسان البدائى هذه الأرواح، حتى أنه كان يخرج بالميت من فتحة فى جدار الكوخ، ويلف به سبع مرات حتى يضلله عن مكان الباب، ويذهب به بعيدًا عن مكان إقامته، ويدفنه، ويحيط مدفنه بالنباتات الشائكة حتى لا يعود إليه فى الأحلام.

تحدث كبير القبيلة إلى قبيلته أن الله يرى خيره كما يرى شره، وأن هناك جنة ونارا، ولم يكتف بهذا، بل وضع قانونًا أرضيًا للعقوبات، كما وعد بمكافأة وتكريم لصاحب الأعمال المصالحة.

تحول إنسان الغابة البدائى إلى إنسان له ظاهر الحضارة، والداخل جاهلية على حد تعبير نزار قبانى هذا التحول كان بقانون سماوى: جنة أو نار، قانون أرضى: حرية أو سجن أو إعدام.

كانت هذه الحقبة الزمنية من زمن الكروماجنون إلى زمن فجر الضمير، الأسرة الأولى- ٥٦١٩ ق.م مانيثون، كما سماها جيمس هنرى برستد، تسمى بـ «السعى الحضارى» لأنها بدون تدوين، بدأت حضارة مصر بالتدوين ٥٦١٩ ق.م الأسرة الأولى.

يقول الدكتور محمود السقا أستاذ القانون فى كلية الحقوق جامعة القاهرة فى كتابه الرائع :فلسفة وتاريخ القانون المصري القديم، كان القانون فى مصر القديمة مثاليًا فى قواعده، عالميًا فى مراميه، عادلًا فى أحكامه، نقيًا فى مبادئه، صافيًا فى مواده، دهشة للمؤرخين لأنه قام على دعامتين:

أ. العدل أساس الملك بين الحاكم والمحكوم.

ب. العدالة الاجتماعية فالكل أمام القانون سواء.

نجد خطاب العرش الذي يتلوه الملك على كبير الوزراء (رئيس الوزراء): أعلم أن الوزارة مرة الطعم وليست حلوة، أعلم أن الماء والهواء سوف ينتقلان إلى كل ما تفعل، إياك أن تقرب إنسانًا منك لأنه قريب منى، أو تبعد إنسانًا عنك لأنه بعيد عنى، بل ليكن المقرب منك أو البعد عنك بسبب الكفاءة وليس بسبب أى شىء آخر، اعلم أن احترام الناس لك لم

يأت إلا بإقامتك للعدل، إياك أن تفعل ما فعله كبير الوزراء خيتى من قبلك، مارس الظلم حتى يتصف بالعدل!
ظلم أهله وأعطى حقهم للغريب خوفًا من أن يتهم بأنه يحابى أهله ! ليكن نبراسك ربه العدالة ماعت، وأن تعطى لكل ذى حق حقه، ولا تفرق بين قريب أو غريب.
«جيمس هنرى برستد- فجر الضمير»
بنتاؤر ابن الملك رمسيس الثالث، اتهم بالخيانة، فتشكلت محكمة من خمسة عشر قاضيًا، حكموا عليه بالإعدام، ونفذ الحكم،اكتشفت المحكمة أن اثنين من القضاة كانا على علاقة بالقصر فحكموا عليهما بالإعدام، فانتحر القاضيان قبل تنفيذ الحكم!
لم يكن هناك محاماة قبل العصر الرومانى، كان من حق أى مصري أو مصرية الشكوى أمام المحكمة، كانت المرأة من حقها أن تشكو زوجها إذا صدرت منه قسوة باليد أو اللسان، فكان ينذر أول مرة، ويجلد ثانى مرة، يخلع ثالث مرة إذا طلبت الزوجة ذلك، بل كان هناك بند فى عقد الزواج على لسان الزوجة: إذا هجرتك كزوج، أرد لك مهرك ونصف ما جمعناه سويًا فى حياتنا الزوجية!
بل الأعجب والأجمل أن الابنة الصغرى على شرط أن تكون أكبر من ستة عشر عامًا، هى التي تقوم بتوزيع الثروة بالتساوى بين الأخوة والأخوات فى حالة وفاة الأب!
فهى الصغرى حتى لا يغتصب حقها الكبار، والابنة حتى لا يغتصب حقها الذكور.
كان من حق أى مصري أن يشكو لمحافظ الإقليم، ولنا فى قصة الفلاح الفصيح والتسع خطابات التي أرسلها لمحافظ وادى النطرون «رينسى بن ميرو»، لأن اللصوص سرقوا بضاعته، فكان الخطاب الأول تحفة أدبية رائعة: قلبك رمانة الميزان، لسانك المؤشر بالعدل، دع العدالة تهتف باسمك، عرض المحافظ هذا الخطاب على الملك، قال له: اقبض على اللصوص، ولا تخبر الفلاح بذلك حتى يكتب لنا أكثر من خطاب ! غضب الفلاح أخانوب، فكان الخطاب الثالث وما بعده قاسيًا! أعدل فما أنت بعادل، مالك بطىء فى استرداد حقوقى، هل يعينك الملك محافظًا على الإقليم حتى تكون معينًا للصوص وقطاع الطرق؟!
وحين أعلن الفلاح أنه سيغادر وادى النطرون لأن ربة العدالة ماعت غادرته، أعلن المحافظ للفلاح أنه عن قصد تعمد عدم الرد عليه حتى يكتب أكثر وأكثر!
من يصدق أن تحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية المصرية التي امتدت إلى ما بين النهرين شمالًا، برقة غربًا، إثيوبيا جنوبًا، أراد أن يغير فقرة فى القانون، فرفض قاضى القضاة قائلًا :لا يجب أن تعلو كلمة الحاكم فوق كلمة القانون، فاعتذر الإمبراطور العظيم!!
جونار ميردال عالم سويدى فى الاقتصاد السياسى، أراد أن يعرف العامل المشترك فى الدول الرخوة أى الفاشلة، فوجد أنه غياب سيادة القانون!
كان القانون فى مصر القديمة قطع اليد لمن يسرق أو يغش الميزان أو يأخذ رشوة أو يزور مستندات، أما عقوبة الزنا فكانت مائة جلدة مع جدع طرف الأنف.
أما عقوبة قطع اللسان فكانت لجريمة الخيانة الوطنية، أما قطع الأعضاء التناسلية فكانت لجريمة الاغتصاب، أمام جريمة البلطجة وقطع الطريق، فكانت قطع الذراع وإحدى الأذنين.
أول قانون لحقوق الإنسان «حور محب»: كانت مصر
أول قانون دولى «تحوت»: مصر
أول ميزان للعدالة أصبح فى العالم كله: مصر
أول قاضية نفراحى «NAFRAIHT» فى العالم: مصر
أول ملكة تحكم «ميرت نت»: للأسرة الأولى: مصر
أول تأمين صحى شامل: مصر
كان الطبيب لا يتقاضى أجرًا من المريض لأن الدولة كانت تكفل له حياة كريمة، بل كان لزامًا على الطبيب أن يسلم أى هدية تصله من المريض إلى بيت الحياة «كلية الطب» التى تخرج فيها.
جدير بالذكر أن المواطن كان لا يتحمل أى رسوم للمحاكم.
كانت من ضمن النصائح للقاضى: أيها القاضى الذى تحكم بين الناس فى الدنيا، سوف يحاكمك الله فى الآخرة على أحكامك، كما كان هناك مفتشون على المحاكم حتى يتأكدوا أن كل الأمور تسير وفق القانون، كما كان البت فى الأحكام سريعا، وقدرة الدولة على تنفيذ الأحكام دون إبطاء بما أدى إلى الابتعاد عن العنف أو الثأر عند المواطنين.
قالت كارين شوبارت عمدة برلين الحالية كيف كان سيكون شكل العالم الآن.. لو لم تكن الحضارة المصرية القديمة، كما قال والاس بادج عالم المصريات البريطانى نحن فى حاجة إلى قرنين من الزمان حتى نصل إلى هذا المستوى الرفيع من الحضارة الإنسانية.
مصر حاربت الفساد بالقانون، والأخلاق، كان كل مصري وكل مصرية يعرفون أنهم سيحاكمون أمام ٤٢ قاضيا بعد الموت، وعلى كل فرد أن يقر أمام القضاة أنه لم يرتكب ٤٢ خطيئة، كما يعترف أنه فعل ٤٢ عملاً من أعمال الخير، إليكم أمثلة من الاعتراف الإنكارى:
أنا لم أكن سببًا فى دموع إنسان، ولا شقاء حيوان، كما لم أعذب نابتًا بأن نسيت أن أسقيه ماء، أنا لم أكذب، ولم أسرق، ولم أقتل، أنا لم أتعال على غيرى بسبب علو منصبى، ولم أرفع صوتى على غيرى أثناء الحوار، أنا لم أتحدث عن غيرى بالسوء، أنا لم أجعل الغيرة تنهش قلبى، أنا لم ألوث مياه النيل، ولم أحرم إنسانًا من حريته، أنا لم أتعلق بمغريات العالم بسلاسل من ذهب.

مصر حاربت الفساد بالقانون، والأخلاق، كان كل مصري وكل مصرية يعرفون أنهم سيحاكمون أمام ٤٢ قاضيا بعد الموت، وعلى كل فرد أن يقر أمام القضاة أنه لم يرتكب ٤٢ خطيئة، كما يعترف أنه فعل ٤٢ عملاً من أعمال الخير

وإليكم أمثلة الاعتراف الإيجابى:
أنا كنت عينًا للأعمى، ويدًا للمشلول، ورجلًا للكسيح، وأبًا لليتيم، أنا كنت أحب الناس جميعا، وأذكر محاسنهم، أنا كنت أحترم عقائد غيرى، أنا كنت أذكر الله دائمًا، أنا كنت سببًا فى فرح قلب أمى، ورضاء أبى، أنا كنت أعطى خبزًا وفاكهة من أرضى للمحتاج، أنا قلبى نقى، أنا يداى طاهرتان.
هذا القانون الأخلاقى الرائع الذى يحاسب به كل مصرى أو مصرية أمام محكمة العدل الإلهية، كانت يقضى على كل فساد، لذا قالها أفلاطون الذى علمناه الفلسفة ١٣ سنة: ما من علم لدينا إلا وقد أخذناه عن مصر، كما جاء سولون إلى مصر، واعتنق الأمونية، وعلمناه القانون، وقال ربت «طبطب» على كتفى أحد الكهنة فى مصر وقال: أنتم اليونانيون أطفال بالنسبة لنا، كما قال جان فرانسوا شامبليون: يتداعى الخيال ويسقط بلا حراك تحت أقدار الحضارة المصرية القديمة: كان أمير الشعراء أحمد شوقى على حق حين قال عن مصر والمصريين:

مشت بمنارهم فى الأرض روما
ومن أنوارهم قبست أثينا
تعالى الله كأن السحر فيهم
أليسوا للحجارة مُنطقينا